شهرية العلم

وسائل التغلب على الألم

مزاياها وأخطارها

ما أقسى سكون الليل وأشد حلكته ، وما أبدع استرخاء النوم وألذ غفلته ، وما أفظع وطأة الألم وأشد بأسه ، فالناس لديه سواء لا يرحم العدو ولا الصديق .

على أن الألم رغم شدة وطأته على الجسم والنفس ، يجب اعتباره من الحواس الضرورية كالسمع واللمس وباقي الحواس الخمس ؛ إذ أن له مزايا وقائية جمة . فلولاه لتركنا الجمرة المحترقة تنال من أجسامنا ما شاءت ، ولما ابتعدنا عن مواطن الأذى والخطر حيثما كانت ، ولما فطنا إلى موضع الخلل من الآلة البشرية التي تعمل دون انقطاع أعواما ، فتسير في نعومة حيناً أو يختل ميزانها أياما . والألم هو سبيلنا الوحيد لتعرف موضع الداء ، فنكافحه بما يناسبه من دواء . فهو نقمة ونعمة ، وخنجر مغمود ودرع واق . وسبحان الذي يعطي ويأخذ ، ويذل ويرحم وهو على كل شيء قدير .

كم سمعنا عن قلب يتلظى أو كبد تحترق ، فظننا أن أعضاءنا الداخلية كالقلب والكبد والرئة والكليتين والمعدة والأمعاء حساسة مرهفة يؤلمها الوخز الرقيق الدقيق ، ولكن الواقع أنها لا تحس ولا تشعر بالألم ؛ فانك إذا فتحت بطن حيوان ما ثم عبثت بأحشائه تضغط عليها حيناً وتقطعها بحد السلاح أو تحرقها بالنار حيناً آخر لما وجف أو صرخ متألماً . وفي الحالات الجراحية التي تجرى تحت تأثير البنج الموضعي يلاحظ الجراح ومن حوله أنه متى تعرضت الأحشاء أمكن العبث بها أو الضغط عليها والمريض لا يكاد يشعر بما يجرى فيه . ويقص السير وليم هارفي أسطورة لا تخلو من طرافة ، وهي أن الابن الأكبر للورد مونتجومري ولد وفيه تشوه خلقي جعل قلبه بادياً للعين إلا من الجلد الرقيق حتى أمكن لمسه بالأصبع . فحملوه إلى الملك شارل ليشاهد تلك الحالة الشاذة ، وأمكنه أن يتأكد بنفسه أن القلب لا يشعر إذا أمسكناه أو ضغطناه بأصابعنا . ولقد أوحت كل هذه الظواهر إلى العلامة هنري هيد بفكرة الألم الانعكاسي . أي إن أعصاب الحساسية لكل عضو داخلي تنتهي في مكان معين من النخاع الشوكي تتقابل فيه مع أعصاب الحساسية لجزء معين من الجلد . فاذا تألم القلب مثلا انعكس ألمه إلى الكتف الأيسر أو الذراع الأيسر ، وينعكس ألم حويصلة المرارة إلى الكتف الأيمن أو الظهر أو منطقة المعدة . والرئة مثلا لا تحس بالألم ولكن متى امتد الالتهاب إلى غشائها شعر المريض بألم حاد قد ينعكس إلى البطن ، فيظن الطبيب أن موطن الداء في المرارة أو المصران

الأعور. وبالعكس من هذا ، إذا امتد التهاب الكبد أو المرارة إلى الحجاب الحاجز سبب أعراضاً تشبه الالتهاب الرئوى . ولعل جالينوس كان أول من وصف هذه الظاهرة فى عام ١٦٠ قبل الميلاد . فقد فصل فى مذكراته عنها وبلغ من دقة الوصف أن قال : « إذا امتد مرض الكبد إلى الحجاب الحاجز نتج عن هذا سرعة فى التنفس وألم موضعى وسعال شديد لايصحبه بصاق ... »

ولا بد أن يمر الشعور بالألم بمراحل عديدة قبل أن يترجم على وجهه الصحيح . فمحطة الاستقبال الأولى سواء كانت على سطح الجسم أو داخله — ترسل إشارتها إلى النخاع الشوكى ومنه إلى مكان فى قاع المخ يدعى المهاد thalamus ومهمته التفريق بين درجات الحرارة والألم بشكل تقريبى . ومن هناك تستمر الاشارة فى طريقها إلى المحطة الرئيسية العليا فى سطح المخ ، فتتحلل تحليلا فنياً دقيقاً ، ويشعر بمكان الألم وطبيعته ودرجته من الشدة ، فيثير فى الانسان الجزع والقلق والضيق وغير ذلك من مظاهر الألم التى يعهدها كل من اكتوى بناره .

من هذا ندرك أن شعور الالم يجب أن يمر فى المراحل الآتية : محطة إرسال سطحية أو داخلية ، ومنها يسرى فى الأعصاب والنخاع الشوكى حتى يصل إلى مركز الرئاسة رهو المخ حيث تتسلمه محطتان إحداهما إضافية غير دقيقة ، والأخرى رئيسية وهى بمثابة الأخت الكبرى المكتملة النضوج التى تدرك ماخفى من الامور . فاذا تحدثنا عن دواء مسكن أو منوم أو مخدر قصدنا بهذا عنصراً كيميائياً ينزل على أحد هذه المحطات أو كلها فيشل من حيويتها بشكل مؤقت ويريح الجسم من عناء الألم أو الأرق المذل المرهق ويسلمه إلى سلطان النوم الهنىء ، ويالها من نعمة كبرى .

أنت تسمع مثلا عن استعمال لبخة بذر الكتان أو الانتفلوجستين أو قربة الماء الساخن لتخفيف الآلام السطحية الموضعية . فهل خطر لك أن تسأل عن سر مفعولها فى سبيل تخفيف آلامك ؟ ولا بد أنك فى يوم ما لجأت إلى أحد أدوية الروماتزم تدلك بها كتفك أو ذراعك أو ظهرك أو ساقك فلاتلبث أن تشعر بدفء موضعى عجيب يصحبه ذوبان الشعور بالألم المضنى . لماذا نلجأ إلى هذه الطرق البدائية فى سبيل الخلاص من قيود الآلام والأوجاع ؟ ألم أقل لك منذ سطور قلائل إن الشعور بالألم يبدأ فى محطة الارسال سطحية كانت أو داخلية ومنها يسرى فى أعصاب هى بمثابة الأسلاك الكهربائية ليصل بواسطتها إلى المركز الرئيسى الذى يفسر الألم على حقيقته . فاذا انت حاولت إنشاء محطة أخرى فى منطقة مجاورة بحيث تطغى أمواجها على رسالة المحطة الأصلية أى موضع الألم ، أمكنك أن ترغمها على الانزواء والاختفاء ولو مؤقتاً ، فينسى المخ الألم الأصلى ويتفرغ للمداعب الجديد يحاول تفسير كنهه ومدى أغراضه من تدخل غير متوقع فى ظرف دقيق كهذا . وقد تطول فترة المداعبة أو تقصر حسب قوة المحطة الاضافية ودرجة انتشار أمواجها فى الأفق الضيق .

على نفس هذه المحطة الخارجية يسرى مفعول بعض المخدرات الموضعية كالكوكايين مثلا . فأنت إذا حقنت هذه المادة تحت الجلد فى أى موضع من سطح الجسم ، أمكنك أن تعمل فيه بالسلاح والمبضع دون أن يشعر المريض بأى غضاضة أو نفور . وإذا حقنتها تحت ضرس أمكنك خلعه على حين يراقبك المريض فى بساطة وسكون . وما هذا إلا نتيجة لشلل مؤقت فى

محطة الاستقبال ، فيجرى كل شيء فى غفلة من مركز القيادة العليا الذى يعتمد فى تصريف أموره على حارس يود لو كان أميناً ، ولكن من طبيعته أن تلهيه عن مهمته الأصلية المداعبات والمشاغلات ولا يفيق من غفلته إلا بعد فوات الأوان .

بقيت لدينا المحطتان الرئيسيتان ، وإحداهما كما أسلفنا تقع عند قاع المخ ، والثانية عند سطحه . أما الأولى فان تأثيرها بأدوية خاصة يؤدى إلى زوال الألم دون أن يغيب الشخص عن صوابه أو يفقد توازنه ، كما هى الحال عند تعاطى الأسبرين والبيراميدون والفيناستين والفينوباريتال (اللومينال) . ومعظم المستحضرات المسكنة المنتشرة فى السوق الطبى تجمع بين اللومينال وأحد أفراد المجموعة سالفة الذكر . أما المنومات التى تشل من حركة المركز الأعلى فمن أهمها المورفين ، وأملاح البرومور والكلورال والبارالدهيد ، فيصحب زوال الألم استرسال فى نوم عميق ينسى خلاله المريض ألمه ولو إلى حين .

ومهما قيل عن أخطار المنومات والمسكنات فانه لابد أن يأتى اليوم الذى يحتاج أحدنا إلى واحد منها ليقاوم أرقا مستعصياً سببته أحداث العالم الصاخب ، أو ليريح نفسه من ألم ممض هو من الأحداث اليومية العادية فى حياة الآلة البشرية .

وإذا كان لابد من الشر فلنتحايل عليه لنمتص منه الذى ينفع ، ونتجنب فى الوقت نفسه ويلاته ومضايقاته . فيجب أن يكون الدواء المنوم مثلا رءوفا بالمعدة لا يهيج غشاءها المخاطى وأن يكون سهل الامتصاص من الأمعاء سريع الافراز فى البول حتى لا يتراكم فى الجسم بعد أن يؤدى مهمته ، ولأنه وجد بالتجربة أن هذا التراكم يؤدى إلى نوع من التممم المزمن ، من أهم أعراضه التبلد الذهنى والخمود الجسمى ، فيصحو الشخص من النوم خاملا كسولا لا يقبل على عمل اليوم بالنشاط المعهود بعد أن نام ملء جفونه ساعات طوالا . كما يجب أن نتجنب الأدوية التى تؤثر فى القلب والدورة الدموية أو التى تؤدى إلى عادة الإدمان كالمورفين مثلا .

إذا استعرضنا الأدوية الشائعة واحداً بعد الآخر وبدأنا بأكثرها شيوعا وهى مهبطات الحرارة العادية التى لا تكاد تخلو منها صيدلية أى منزل ، وأعنى بهذه الشرذمة مركبات الأسبرين والفيناستين والبيراميدون وجدنا نحن الأطباء أنفسنا مضطرين إلى إرسال كلمة تحذير لابد منها فى سبيل السلامة العامة . فما لا شك فيه أن لهذه المركبات فوائد عظيمة فى علاج الصداع وآلام المفاصل وروماتزم العضلات وألم الأسنان ، فهى بجانب مفعولها كمهبط للحرارة نتيجة تأثيرها فى مركز الحرارة المخى تؤثر فى الوقت نفسه فى مركز الألم المجاور لأخيه الحرارى أى إن بركتها تحل على الدائرة ومن فيها . ولكن حتى هذه المجموعة البريئة فى ظاهرها لا تخلو من أشواك قد تخز ، أو قد تنال من الجسم مقتلا . . . فالاسبرين مثلا — هو اللعبة المفضلة فى صيدلية المنزل — قد يسبب آلاما معدية يصحبها عسر هضمى ، وقد يؤدى تعاطيه إلى حدوث طفح جلدى وهرش شديدين وتورم فى الوجه والعينين ونزف من الأنف والفم ولذا جرت العادة الآن على إعطاء الفيتامين ك — وهو الفيتامين المضاد للنزف — فى نفس الوقت إذا اضطر الطبيب إلى إعطائه لمريض بكميات كبيرة كما هى الحال فى الحمى الروماتزمية مثلا . ومن سبيل وضع الحق فى نصابه يجب أن نذكر أنه ليس للأسبرين وبقية أفراد أسرة السلسلات أى تأثير سيء فى القلب كما تروى الشائعات .

فاذا تركنا فصيلة الأسبرين وطرقنا باب

أسرة البيراميدون لنكشف عما فيها من محاسن ومساوئ لرأيتا عجبا ؛ فاننا نجد اسم أحد أعضائها ضمن معظم المركبات المسكنة التى فى متناول الجميع يشترونها من الصيدلى المتخصص ومن البدال الذى يبيعها بجانب طابع البريد وعلبة السجائر . ولا بد لى فى هذا الصدد أن أرسل لك كلمة إنذار خالصة . فاذا رأيت اسم البيراميدون Pyramidon مدرجا فى تركيب دواء ما فخذ حذرك منه ؛ لأن لهذا الصديق الملعون قدرة خاصة فى بعض الأشخاص — لا كلهم بطبيعة الحال — على النزول بكريات الدم البيضاء إلى الحضيض ، فتهوى من مستواها العالى البالغ عشرة آلاف فى المليمتر المكعب إلى ألف أو أقل ، فتقل مقاومة المريض للجراثيم ويصاب بالتهابات شديدة بالفم والزور وينتابه هبوط شديد قد ينتهى بالوفاة . وتحدث هذه الأعراض — لحسن الحظ — فى قلة من الناس فى أجسامهم حساسية خاصة لهذا الدواء . ويمكننا أن نجنبهم شره بتحليل دم كل مريض يتعاطاه بصفة دائمة ، من آن لآخر ، ووقف تعاطيه فى الحال إذا وجدنا أن عدد الكريات البيض آخذ فى الهبوط .

وعند ما أسرد لك فيما يلى قائمة أسماء الأدوية التى تحوى مادة البيراميدون بين عناصرها ، لا أقصد مطلقاً الحط من قدرها فمعظمها أسماء عزيزة كم خففت من آلام وأوجاع وأدت للانسانية خدمات جلى تسجل بماء الذهب . ولكن كل ما أريده إنذار ودى من صديق يود لو كان نافعاً وأمينا ، لولا حساسية خاصة فى البعض منا تجعل من الدواء داء ، ومن النعيم بلاء .

نوع الدواء	مقدار الجرعة الواحدة	التركيب الكيميائى
الفيرامون Veramon	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباريتال
سيبالجين Cibalgin	قرص إلى أربعة	بيراميدون ، فينوباريتال
أللونال Allonal	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباريتال
جاردان Gardan	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، نوفالجين
نوفالجين Novalgin	قرص إلى قرصين	لا تحويان مادة البيراميدون ولكن فيهما مادة الفيناستين وهى أسلم نوعا ولو أن لها أيضاً متاعبها ومضايقاتها .
فيجانين Veganin	قرص إلى قرصين	

فكل ما أرمى إليه من عرض هذه الأسماء الغالية على كل نفس هو مجرد لفت النظر إلى عدم الافراط دون تبصر أو روية فى تعاطيها ، وألا ننشئ بيننا وبينها صداقات كبيرة ؛ فليس أعصف بالود من ملازمة مستمرة تكشف الغطاء عما خفى وبطن .

أنتقل من ذلك إلى أملاح البرومور Bromides وهى من أوسع المسكنات انتشاراً وتستعمل بصفة خاصة فى علاج الأرق والتهيج العصبى والصرع . وتتميز أملاح البرومور بطول مدة مفعولها ؛ لأن إفرازها من الكليتين بطىء فتبقى فى الجسم مدة أطول . ولهذا كانت فائدتها فى علاج الصرع كبيرة لأن بقاءها بالجسم مدة طويلة يضمن السيطرة على الأعصاب المتوترة حتى يحين موعد الجرعة التالية .

ولعل فائدة البروومور كعلاج للصرع هى ألمع صفحة فى تاريخه الطبى . فهو غير كفء كمنوم ، ولا يزيل الألم فى الحالات الحادة . وإذا أعطى بمقادير صغيرة ، خمدت حدة الذهن والتيقظ والتنبه التى يمتاز بها الشخص العادى . فيبدو خاملا خامداً ، لا يقوى على التركيز والتفكير . وإذا أعطى بمقادير كافية لجلب النوم فان المريض يصحو منه كسلان على غير ما نعهده فيه بعد الاستيقاظ من نوم طويل .

وإذا أعطى البروومور مددا طويلة فان تراكمه بالجسم يسبب أعراضاً خاصة ، من أهمها بلادة التفكير وضعف الذاكرة ، وظهور طفح جلدى يظهر على شكل فقاعات أو بثور دملية أو بقع حمراء ، وفى الحالات الشديدة قد لا يقوى المريض على السير بثبات ، ويتهته ويتلعثم إذا حاول التعبير عن أفكاره . ويمكن شفاء هذه الحالات بوقف تعاطى الدواء وتناول المريض كميات كبيرة من ملح الطعام أى كلورور الصوديوم ، فان هذا يساعد على سرعة إفرازه بواسطة الكليتين .

وقد شاع فى السنين الأخيرة استعمال مستحضرات الفينوباربتال Phenobarbital ومن أسمائه المعروف بها اللومينال Luminal حتى ليقال إن معامل الولايات المتحدة وحدها أخرجت ما زنته مائة طن استهلك منها داخل أمريكا نفسها ثمانون طنا ، وأصبح الناس يستعملونها فى بساطة كأنها أقراص الحلوى ، ولجأ إليها الكثيرون كوسيلة للانتحار ، وأدى سوء استعمالها إلى ظهور أعراض تسمم شديدة تصحبها غيبوبة قد لا يفيق المريض منها نتيجة شلل مركز التنفس المخى ، أو التهاب رئوى حاد تنتجه الغيبوبة الشديدة وتراكم الافرازات المخاطية فى قاع الرئتين ثم غزوها بالجراثيم . ولكن قد لا تعدو أعراض التسمم حدوث طفح جلدى يشبه طفح الحصبة مصحوب بارتفاع فى الحرارة ، ولا يلبث كل هذا أن يزول إذا وقفنا تعاطى الدواء . أما فى الحالات الشديدة المصحوبة بغيبوبة فيجب حقن المريض بالاستركنين ، ويفيد أيضا من استنشاق الأوكسجين ، وخاصة المخلوط بثانى أكسيد الكربون بنسبة سبعة فى المائة .

وللفينوباربتال مستحضرات عدة وتتوقف كفايتها وسلامة مفعولها على قدرة الجسم على تحطيمها والتخلص منها ، فلا يبقى منها فى الجسم بعد مضى ٢٤ ساعة من تناولها سوى القليل ، ولا يؤدى تكرار استعمالها أياما متوالية إلى تراكمها بجسمه الأمر الذى يؤدى عادة إلى أعراض تسمم مزمن . فالفينوباربتون مثلا لا يطرد من الجسم بسهولة ، بينما النجبيوتال والأميتال ، وهما من مشتقات الباربتال أيضاً ، أسلم عاقبة لأنهما يحطمان وتفرزان من الجسم بسهولة . وكلما كان الافراز بطيئا شعر الانسان بخمول جسمى وذهنى فى اليوم الذى يعقب تناول المنوم .

وعلى العموم يحسن عدم الالتجاء إلى تعاطى أحد أفراد هذه المجموعة بانتظام ولو أنه ليس هناك مانع من تعاطيها من آن لآخر عند ما تكون الحاجة ملحة . وعلينا دائماً أن نقاوم هذا القرص السحرى الصغير الذى يغرينا صغر حجمه على التهامه حتى دون جرعة ماء .

وهناك دواءان منومان شائعان منذ زمن طويل ، وهما البارالدهيد والكلورال وهما يمتازان بسرعة مفعولها وسرعة طردهما من الجسم حتى ليصحو الشخص فى اليوم التالى من نومه منتعشاً هادئاً وكأنه نام نوما طبيعياً . ولكن ظهور المستحضرات سالفة الذكر طغى عليهما كما طغت السيارة والقطار على ذوات الأربع كالحصان والحمار .

أما المورفين فيجب تجنب استعماله كسموم في حالات الأرق المزمن؛ فقد يولد في الشخص عادة مزمنة متى وقع في مخالبها فقل عليه السلام . ولكننا نلجأ إليه كمسكن من الدرجة الأولى في الأزمات القلبية والكلوية والكبدية وفي الأمراض المزمنة الميئوس منها لكي يقضي المريض أيامه الأخيرة على أهنأ حال .

هذه قصة تلك الطاقة الفريدة التي قد ترى العين غير المجربة بين أفرادها الفل والياسمين على حين ترى فيها العين الناقدة الخطر الدفين . فاحذروا لين ملمسها ، لأن الخداع من طبعها والغدر من طبيعتها .

مصطفى الديوانى